المحاضرة السابعة: كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني.

أقرت الدراسات النقدية والبلاغية الحديثة والمعاصرة بأن حازم القرطاجني واحد من صُناع الشعرية العربية، وقد تجسد ذلك في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) الذي تناول فيه العديد من القضايا المتعلقة بالشعر كالوزن والقافية والإيقاع والمحاكاة والت خييل والغرابة والت عجب والتناسب، ولأهمية هذا الموضوع حاولنا في هذا العمل الموسوم ب " أسس الشعرية العربية في فكر حازم القرطاجني من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء " الكشف عن كيفية تشييد حازم القرطاجني للشعرية العربية وأهم العناصر التي تطرق إليها وإلى أي مدى نجح في موضوع الشعرية.

الشعرية عند حازم القرطاجني:

لقد حاول حازم القرطاجني تأسيس نظرية شعرية انطلقت من جهود الفلاسفة اليونانيين والعرب الأمر الذي جعل منها شعرية ناضجة. فما هي أسس الشعرية عنده؟

1-مفهوم الشعر عند حازم القرطاجني:

عرف حازم القرطاجني الشعر قائلا:" الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإنا استغراب والتعجب حركة للنفس إذا قرنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها و تأثيرها" [i].

يتبن من مفهوم حازم القرطاجني للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، أي الذي يعتمد الجانب العروضي بأوزانه وقوافيه، وهذا ما قال به النقاد القدامى، كابن رشيق القير واني الذي يقول:" الكلام بعد النية أربعة أشياء وهي: اللفظ المعنى الوزن والقافية هذا هو حد الشعر" [ii] والشعر عند حازم القرطاجني إن كان مما يأتلف مع النفس مالت إليه وطلبته وإن كان مما تستكرهه النفوس وتستنكره نفرت منه ولم تطلبه، ويستوجب الشعر حسن التخييل والمحاكاة، وقوة الصدق والشهرة إضافة إلى استعمال الاستغراب والتعجب.

2-أفضل الشعر وأردأه عند حازم القرطاجني:

أ–أفضل الشعر عند حازم القرطاجني:

ميز حازم القرطاجني بين الشعر الجيد والشعر الرديئ بحيث يرى أ ن :" أفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته، وإن كان قد يع د حذقا للشاعر اقتداره على ترويج الكذب وتمويهه على النفس وإعجالها إلى التأثر له قبل، بإعمالها الروية في ما هو عليه فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تحيله في إيقاع الدلسة للنفس في الكلام" [iii]

يتضح أ ن جيد الشعر عند حازم القرطاجني ما كانت فيه الصفات التالية:

–حسن المحاكاة والهيئة.

–قوة الشهرة أو الصدق.

–اختفاء الكذب.

–استعمال الغريب من الألفاظ.

–براعة الشاعر في الكذب وقدرته على التأثير في النفوس.

ترجع هذه الصفات في نظر حازم القرطاجني إلى قوة حيلة الشاعر وذكائه، وهكذا يكون الشاعر الحاذق.

ب–أردأ الشعر عند حازم القرطاجني:

يقول حازم القرطاجني في المنهاج: "وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب خليا من الغرابة، وما أجد ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعرا وإن كان موزونا مقفى، إذ المقصود بال شعر معدوم منه، لأن ما كان بهذه الصفة من الكلام الوارد في الشعر ا تتأثر النفس لمقتضاه، لأن قبح الهيئة يحول بين الكلام وتم كنه من القلب، وقبح المحاكاة يغطي على كثير من حسن المحاكي ويشغل عن تخي ل ذلك. فتجمد النفس عن التأثر له، ووضوح الكذب يزعها عن التأثر بالجملة" [iv]

يبدو من القول أن صفات الشعر القبيح عند حازم القرطاجني هي كالآتي:

–قبح المحاكاة والهيئة لأن ذلك لا يجعله ينفذ إلى القلب أي لا يستحوذ على القلوب فيمتلكها ولا يهز الأنفس.

–جلاء الكذب فلا يكون له أثر على النفس.

–الخل و من الغرابة فلا تكون فيه عذوبة.

إن الشعر الرديء حتى وإن جاء موزونا ومقفى فإنه ليس بشعر في نظر حازم اتصافه بصفات الرداءة وهو بعكس الشعر الجيد.

3–الوزن والقافية:

أ–الوزن:

أعطى حازم القرطاجني لعنصري الوزن والقافية أهمية بالغة في المنهاج، إذ ع د الشعر كلاما موزونا مقفى، والوزن قاعدة جوهرية يُبنى عليها ال شعر، تناوله حازم بكثير من الاهتمام بحيث رأى أ ن الأوزان العروضية ثلاثة أصناف يقول:

... "أن الأوزان المستعملة الآن عند أهل الن ظم–مما ثبت استعمال العرب له وما شك في ثباته، وما لم يثبت أصلا بل وضعه المحدثون متركبة من ثلاثة أصناف من الأجزاء خماسيات وسباعيات وتساعيات، وإن لم يسلم في هذا العروضيون.... " [v].

قسم حازم القرطاجني الأوزان العروضية التي يستعملها الناظمون للشعر إلى ثلاثة أصناف فمنها الخماسية ومنها السباعية ومنها التساعية، يقول: "إن الأوزان الشعرية منها ما تركب من أجزاء خماسية، ومنها ما تركب من أجزاء سباعية، ومنها ما تركب من أجزاء تساعية، ومنها ما تركب من أجزاء خماسية وسباعية، ومنها ما تركب من أجزاء سباعية وتساعية، ومنها ما تركب من خماسية وسباعية وتساعية.[vi]

ب–القافية:

ترتبط القافية هي الأخرى بالوزن عند حازم القرطاجني، ويرى بدوي عبده أنها "عنصر جوهري من عناصر الإيقاع ومن ثم يكون اللجوء إليها بعفوية وبراءة" [vii] وهي: "عبارة عن وحدة صوتية مطردة اطرادا منظما في نهاية الأبيات حتى لكأنّها فواصل موسيقية متوقعة بالنسبة لسامع الشعر العربي بين فترات زمنية منتظمة وتعتبر ضابط الإيقاع فيالبيت الشعري"[viii]، ويرى حازم أ ن ا أساسية في بناء الشعر، يقول:" أجيدوا القوافي فإ نا حوافر الشعر أي عليه . جريانه واطراده" .[ix]

يعتبر حازم القرطاجني القافية بمثابة الأقدام التي يسير عليها الشعر ويصير بها مط ردا فيطلب إجادتها وقد اعتبرت أصواتها " درة القول وجوهر معدن ال شعر"[x] والقافية في نظر حازم سمة من سمات كلام العرب.

المحاكاة والتخييل عند حازم القرطاجني:

أ–المحاكاة:

ما عُرف عن حازم القرطاجني أ ن ه كان مولعا بالمحاكاة الأرسطية، فأرسطو رأى ب" أ ن الفن محاكاة)تقليد أو تشبيه) للحقيقة التي تتجسد في الشخصيات والانفعاات والأفعال"[xi] وقد ارتبطت المحاكاة بالتخييل عند حازم، وهما من أهم مرتكزات ال ش عر وضروريان لتركيبه، ولتوضيح مفهوم التخييل والمحاكاة عند حازم القرطاجني هذه بعض التعريفات التي جاءت في المنهاج.

أقر حازم القرطاجني أ ن المحاكاة جبلة انسانية يقول:" لم ا كانت النفوس قد جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا، وكانت هذه الجبلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان"[xii]، وللمحاكاة عند حازم دور كبير في تجسيد الشعرية لأن (أفضل الشعر ما حسنت محاكاته.)

تعددت أقسام المحاكاة عند حازم القرطاجني يقول:" ا يخلو المحاكي من أن يحاكي موجودا بموجود أو بمفروض الوجود مقدره. ومحاكاة الموجود بالموجود لا تخلو من أن تكون محاكاة شيء بما هو من جنسه أو محاكاة شيء بما ليس من جنسه. ومحاكاة غير الجنس ا تخلو من أن تكون محاكاة محسوس بمحسوس أو محاكاة محسوس بغير محسوس، أو غير محسوس بمحسوس أو مدرك بغير الحس بمثله في الإدراك. وكل ذلك ا يخلو من أن يكون محاكاة معتاد بمعتاد، أو مستغرب بمستغرب، أو معتاد بمستغرب، أو مستغرب بمعتاد. وك ل ما قرب الشيء مما يحاكي به كان أوضح شبها ".[xiii]

ويوجد تقسيم آخر للمحاكاة عند حازم القرطاجني : محاكاة تحسين أو تقبيح أو مطابقة يقول:" وتنقسم التخاييل والمحاكيات بحسب ما يقصد بها: إلى: محاكاة تحسين ومحاكاة تقبيح ومحاكاة مطابقة لا يقصد بها إلا الضرب من رياضة الخواطر والملح في بعض المواضع التي يعتمد فيها وصف الشيء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليهُ. وربما كان القصد بذاك ضربا من ال ت عجيب أو االعتبار"[xiv] فإذا كان الشيء حسنا في محاكاة المطابقة ألحقت بمحاكاة التحسين، وإن كان الشيء قبيحا ألحقت بمحاكة التقبيح.[xv]

ب–التخييل:

يعرف حازم القرطاجني التخييل قائلا:" وطرق وقوع التخييل في الن فس: إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء

من طريق الفكر وخطرات البال، أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا، أو بأن يحاكي لها الشيء بتصوير، نحتي أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك، أو يحاكى لها صوته أو فعله أو هيأته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيأة، أو بأن يحاكى لها معنى بقول يخ ي له لها".[xvi]

يوضح لنا حازم القرطاجني في هذا القول كيفية حدوث التخييل الذي يكون باستحضار صور في الفكر أو ما يخطر بالبال أو نقل شيء مشاهد، أو محاكاة عن طريق التصوير أو الرسم) النحتي أو الخطي (أو محاكاة الصوت أو الفعل أو الهيأة أو محاكاة القول.

تناول حازم القرطاجني عنصر ال ت خييل وأعطى له أهمية لما له من علاقة بنفس المبدع وفي الوقت ذاته له القدرة على التأثير في المتلقي. يجسد ذلك قوله: "الشعر كلام موزون مق ف ى من شأنه أن يحبب الى النفس ما قصد تحبيبه إليها،ويكره اليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن هيأة تأليف الكلام" .[xvii]

التخييل عند حازم القرطاجني أربعة أنحاء يقول: "التخييل في الشعر يقع من أربعة أنحاء: من جهة المعنى، ومن جهة الأسلوب، ومن جهة اللفظ، ومن جهة النظم والوزن"[xviii]، وأفضل التخييل ما يكون له تأثير في نفس المتلقي أين تتجلى شعرية الخطاب الأدبي، والأهمية عند حازم للتخييل والمحاكاة، اللصدق والكذب.

الاستغراب والتعجب:

نلحظ توظيف حازم القرطاجني لهذين المصطلحين (الاستغراب والتعجب) في مصنفه، ويُعنى بهما الشيء المجهول أو الشيء غير المعروف، والشيء المجهول يُلتفت إليه بعكس المعروف يقول:" والتعجيب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يق ل الت هدي إلى مثلها. فورودها مستند مستطرف.."[xix]. يرى حازم القرطاجني أ ن التعجب هو ورود الشيء بقلة من طرف الشاعر.

يعد الإغراب والتعجيب من وسائل الشعرية التي ترتبط بالمبدع وتؤثر بقوة في المتلقي ارتباطهما بعنصر الخيال، يقول حازم :" وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا قرنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها".[xx]

يرتبط الإغراب والتعجب كثيرا بالمحاكاة، لذلك يكونان أكثر تم كنا من القلوب، يقول حازم القرطاجني:" فنون

الإغراب والتعجيب في المحاكاة كثيرة. وبعضها أقوى من بعض وأشد استيلاء على النفوس وتمكنا من القلوب"[xxi]

إذن المحاكاة هي الأخرى ا تقل شأنا عن التخييل إذا ارتبطت بالتعجيب والإغراب بحيث تكون أكثر قدرة على التأثير في المتلقي لأن التأثير في المتلقي اليتم إلا بمخالفة المألوف.

الحواشي:

---

[i] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط 1، دار الغرب الاسلامي.، بيروت، 1981، ص 7.

[ii] – ابن رشيق أبو على الحسين القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: د: النبوى عبد .الواحد شعلان، ج 1، ط 1، مكتبة الخانجي القاهرة، 2000 ، ص 19.

[iii] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 71–72.

[iv] – المصدر نفسه: ص72.

[v] – المصدر نفسه: ص 226.

[vi] – المصدر نفسه: ص227.

[vii] – بدوي عبده، نظرات في الشعر العربي الحديث، دار قباء للطباعة والنشر، 1998م، ص76.

[viii] – أبو الشوارب محمد مصطفى والخويسكي زين كامل، العروض العربي صياغة جديدة، ج 2، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص11.

[ix] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 133.

[x] – العربي عميش، خصائص الإيقاع الشعري، دار الأديب للنشر والتوزيع، 2005م، ص 176.

[xi] – محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، ط 1، الانتشار العربي بيروت، 2006م، ص 174.

[xii] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 116.

[xiii] – المصدر نفسه: ص 91.

[xiv] – المصدر نفسه: ص 92.

[xv] – ينظر: محمد بو موسى، تقريب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، ط 1، مكتبة وهبة القاهرة، 2006، ص81–82.

[xvi] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89–90.

[xvii] – المصدر نفسه: ص 71 .

[xviii] – المصدر نفسه: ص89.

[xix] – المصدر نفسه: ص 90.

[xx] – المصدر نفسه: ص 71.

[xxi] – المصدر نفسه: ص 96.